١٠ ــ المتوكل على الله

جاء في كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي: المتوكل على الله: «جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد» أمه أم ولد اسمها «شجاع»، ولد سنة خمس ـ وقيل: سبع ومائتين ـ وبويع له في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، بعد «الواثق»، فأظهر الميل إلى السنة، ونصر أهلها، ورفع المحنة، وكتب بذلك إلى الآفاق، وذلك في سنة أربع وثلاثين، واستقدم المحدثين إلى «سامراء»، وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية، وجلس «أبو بكر بن أبي شيبة» في جامع الرُّصافة، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس، وجلس أخوه «عثمان» في جامع المنصور، فاجتمع إليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف نفس، وتوفر دعاء الخلق للمتوكل، وبالغوا في الثناء عليه، والتعظيم له، حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» ﷺ في قتل أهل الردة، و«عمر بن عبد العزيز» في رد المظالم، و«المتوكل» في إحياء السنة، وإماتة التجهم، وقال «أبو بكر الجنازة» في ذلك:

وبعدُ فإن السنة اليوم أصبحت ... معزَّزةً حتى كأن لم تُذَلَّلِ
تصول وتسطو إذ أقيم منارها ... وحُطَّ منار الإفك والزور من عَلِ
وولَّى أخو الإبداع في الدين هارباً ... إلى النار يهوي مدبراً غير مقبلِ
شفى اللهُ منهم بالخليفة جعفرٍ ... خليفتِهِ ذي السنة المتوكلِ
خليفة ربي وابن عم نبيه ... وخير بني العباس مَنْ منهم وَلِي
وجامع شمل الدين بعد تشتُّت ... وفاري رؤوس المارقين بمُنْصلِ
أطال لنا رب العباد بقاءه ... سليماً من الأهوال غيرَ مُبَدَّلِ
وبَوَّأه بالنصر للدين جنةً ... يجاور في روضاتها خير مرسَلِ

وفي هذه السنة أصاب «ابن أبي دؤاد» فالج صَيَّره حجراً ملقى، فلا آجره الله.

ومن عجائب هذه السَّنَة أنه هَبَّت ريح بالعراق شديدة السموم، ولم يعهد مثلها، أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد، وقتلت المسافرين، ودامت خمسين يوماً، واتصلت بهمذان، وأحرقت الزرع والمواشي، واتصلت بالموصل وسنجار، ومنعت الناس من المعاش في الأسواق، ومن المشي في الطرقات، وأهلكت خلقاً عظيماً، وفي السنة التي قبلها جاءت زلزلة مهولة بدمشق، سقطت منها دور، وهلك تحتها خلق، وامتدت إلى أنطاكية فهدمتها وإلى الجزيرة فأحرقتها، وإلى الموصل، فيقال: هلك من أهلها خمسون ألفاً[1].

ومن مخازي «المتوكل» أمره بهدم قبر «الحسين» ﷺ، ومنع الناس من زيارته، وهدم ما حوله من الدور، فترك المكان بلقعاً كأنه قطعة من الصحراء، وهذا ما أثار عليه سخط أهل بغداد، فشتموه على الجدران، وفي المساجد، كما هجاه الشعراء، ومما قيل في ذلك:

بالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلومَا
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمري قبره مهدومَا
أسفوا على ألَّا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رَمِيمَا

وكانت له أم ولد تدعى «حبشية» ولدت له ابنه «المنتصر بالله، محمد أبو جعفر».

وقال «السيوطي»: ودخل عليه «علي بن الجهم» يوماً وبيديه درتان يقلبهما، فأنشده قصيدة له، فرمى إليه بدرة، فقلبها، فقال: تستنقص بها، هي والله خير من ألف؟ فقال: لا، ولكني فكرت في أبيات أعملها آخذ بها الأخرى، فقال: قل، فقال:

بِسُرَّ مَنْ رأى إمام عدلٍ ... تغرف من بحره البحارُ
الملك فيه وفي بنيه ... ما اختلف الليل والنهارُ
يرجى ويخشى لكل خَطْبٍ ... كأنه جنة ونارُ
يدان في الجود ضَرَّتانِ ... عليه كلتاهما تغارُ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨ ـ ٣٠٢.

لـم تـأت مـنـه الـيـمـيـن شـيـئـاً إلَّا أتـت مـثـلـهـا الـيـسـارُ

فرمى إليه بالدرة الأخرى[١].

وكان يستهل قتل العلماء الأفذاذ، ولا يتروى في ذلك. وروى «السيوطي» أنه في سنة أربع وأربعين ومائتين، قتل «المتوكل» «يعقوب بن السكيت» الإمام في العربية، فإنه ندبه إلى تعليم أولاده، فنظر «المتوكل» يوماً إلى ولديه «المعتز» و«المؤيد»، فقال لابن السكيت: من أحب إليك: هما أو «الحسن» و«الحسين»؟ فقال: «قنبر» ـ يعني مولى «عليٍّ» ـ خير منهما، فأمر الأتراك فداسوا بطنه حتى مات، وقيل: أمر بسَلِّ لسانه فمات، وأرسل إلى ابنه بديته، وكان «المتوكل» رافضياً[٢].

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٠٣.